الارتباط الثوري بين المهمات المباشرة والمهمات الستراتيجية

بواجه الكثير من رفاقنا واصدقائنا – لا سيما في الخارج – تساؤل مشروع حول البرامج المرحلية للثورة الفلسطينية وحول الاساس التحليلي لرفض كل مشاريع الحلول المطروحة والرؤية الحقيقية لمضمونها التصفوي . لكن مشروعية هذه التساؤلات من قبل البعض ، لا تلغي ابدا ان قوى وجهات مغرضة تسعى الى تغذيتها اعلاميا والالحاح في طرحها بهدف اسقاط بعض القوى القصيرة النفس داخل الثورة ، في افخاخ التصور الجغرافي للمهمات المرحلية ، كمقدمة لجرها الى شباك الحلول التصفوية المطروحة او التي تهيأ للطرح ..

وقد لمسنا في العدد الماضي بعض بوادر هذا الانزلاق الفكري والسياسي عند السيد نايف حواتمه الامين العام للجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، كما كنا نلمسه عند بعض العناصر التي لا تملك جراء السيد حواتمه لتطرح افكارها وتصوراتها بشكل علني !

وانطلاقا من مشروعية التساؤل غير المغرض الذي واجهه الثورة واصدقاؤها .. وكذلك انطلاقا من خطوره سقوط البعض في حبائل الانزلاق الفكري والسياسي ، يصبح من الضروري والملح ان نجري اكثر من محاوله جاده لتقيم الواقع الراهن لحركه المقاومة ، والافاق النضاليه المفتوحه امامها ، وتحديد المهمات المرحلية الدقيقة الملقاه على عاتقها ، بالارتباط مع الخط النضالي الستراتيجي المقترنة به وجودا وقضية ومصيرا .. اي بشكل ادق : محاوله تحديد الميكانيكية الموصلة بين الوضع الراهن ومهامه وبين الانتصار الستراتيجي المتمثل بتحرير فلسطين واقامة المجتمع الديمقراطي التقدمي الكفيل بحل كل الصراعات القومية والعنصرية والدينية ، على اسس وطنية وتقدمية وانسانية .

ان الوقوف امام هذه الموضوعة ، موضوعة التحرير ، لا يمكن ان يكون وقوفا جغرافيا جامدا ، اي لا يمكن ان يقفز فوق المتغيرات التي سوف يحدثها الصراع نفسه على جانبيه .. فالصراع بامداده العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسة والفكرية ، سوف يحدث بالضروره جمله من المتغيرات في طبيعة وتركيب القوى المتصارعه .. وسوف تعكس هذه المتغيرات نفسها بدون اي شك ، على معادلة التحرير ، وخاصة على شكلها الديمغرافي (السكاني) والاجتماعي والاقتصادي .. وان اي قفز فوق هذه المتغيرات ، لا بد وان يجنب التحليل من واقعه الموضوعي والجدلي ، فيفقده مضمونه الثوري وصحته وسلامه ما بنى عليه من خطوط سياسية .

واذا كانت كل هذه المعطيات ستعرض للتغير والتطور خلال المسيره النضاليه .. فان هذا لا يعني اطلاقا ان المتغيرات سوف تاتي من خارج العمليه الثوريه .. بل على العكس ان اسس المتغيرات المستقبلية تكمن بالضروره في طبيعه الصراع وواقعه ومساره .. وبدون فهم علمي لهذه الطبيعه وذلك الواقع يستحيل ترصد تلك المتغيرات ، كما يستحيل المسك الواعي والواقعي بالمسار المتنامي الموصل ما بين الحاضر والمستقبل ، اي تحي القدره على النفوذ الدقيق للحلقات المركزيه والمتابعة في سياق العمليه الثوريه وفي كل مرحله من مراحلها .

ومن هنا كانت العودة دائما الى تحديد طبيعة الصراع ، ضروره لكل تحليل يرمي الى رؤية المستقبل بتشوف ثوري سليم .

لقد اكدت الجبهه الشعبيه لتحرير فلسطين منذ البدايه ، كما اثبت التجارب التي مرت بها حركة المقاومه الفلسطينيه خلال السنوات الماضيه ، ان الصراع الفلسطيني – الاسرائيلي ، على مركزيته ، ليس الا حد من حدود صراع اكبر واشمل تواجه فيه حركة التحرر الوطني العربيه وفي مقدمتها حركة المقاومه الفلسطينيه مع الامبرياليه العالميه بذراعيها الحليين : الاسرائيلي الصهيوني والرجعي العربي ، وان هذا الصراع الشامل هو صراع موحد لا يمكن تجزئته(١) .

اذن !

ان اسرائيل في هذا الصراع الشامل الموحد وغير القابل للتجزئة ، هي ليست احتلالا استعماريا فقط وانما بالاضافة لذلك هي اداه ودور ومهمات في المنطقة كلها !! وبالتالي فان التغيرات الجغرافية في مساحة ذلك الكيان ، لن تؤدي الى تغير في طبيعة الصراع ، وفي دور ومهمات اسرائيل بالنسبه لكل المنطقة ، ما لم تكن نسبجة نهوض ثوري في المنطقة تؤدي الى تغيير موازين الصراع ..

اي بشكل ادق : ان تغير مساحة الاحتلال ، بقرار من مجلس الامن او من غير مجلس الامن ، او باتفاق بين اسرائيل وبين الانظمه العربيه ، لن يقدم اي شيء للعمليه الثوريه – اذا لم يحصل العكس – فلا طبيعه ومهمات ودور الكيان الصهيوني سوف تتغير ، وكذلك لا تتغير طبيعه الانظمه العربيه وخاصه الرجعيه منها .

في مقابل ذلك نصل الى الاستنتاج البالغ الاهميه : الى ان التحرير ليس عمليه جغرافيه جامده ، وانما هو عمليه ثوريه اجتماعيه واقتصاديه وعسكريه وسياسيه .. والمرحله بالتالي ، لا يمكن ان تكون مرحلية جغرافيه فقط بل هي مرحلية تطوير اداه الثوره والنهوض الجماهيري وتغيير ميزان القوى .

والان تصبح ضروريا جدا تقديم بعض الامثله حول بعض ما تحقق في سياق هذه العمليه الثوريه منذ ١٩٦٧ حتى الان :

اولا – في صلب الكيان الصهيوني :

لقد احدث الصراع نفسه داخل اسرائيل جمله من المتغيرات التي تشكل دلالات تاريخيه ، بالغه الاهميه اذا ما نظر اليها بمنظار التطلع الثوري التاريخي :

١ – منذ عام ١٩٦٧ حتى الان تبنت الطبقه الحاكمه الاسرائيليه سياسة تجميد اجور العمال ، في حين يلاحق تصاعد الاسعار باضطراد ، وهذا ما يؤدي الى تردي مستوى معيشة الطبقة العاملة في اسرائيل ، ويساعد شيئا فشيئا بن مصالحها ومصالح الطبقه الحاكمه المهيمنه على الكيان الصهيوني . ومثل هذا التجميد للاجور ليس ناجما عن ارادة ذاتية للحكومة ، بل هو واقع تفرضه المصلحه الصهيونيه لحماية ذلك الكيان في الصراع مع حركه التحرر الوطني الفلسطيني وحركة التحرر الوطني العربية .. فمن كل ليرة اسرائيلية تاخذها الحكومه كضريبه يذهب ٨٠ اغورة اي ٨٠٪ لشؤون الامن والدفاع ..

ان هذه الواقع تؤكد ان المزيد من الصراع والتصاعد في حدته يخلق تناقضا متزايدا الحدة بين مصالح الطبقة العاملة داخل اسرائيل وبين مستلزمات حماية الكيان الصهيوني . وقد افرز هذا الواقع الموضوعي خلال السنتين الاخيرتين بشكل خاص ، ظواهر اجتماعية بالغة الاهمية مثل التصاعد الكبير في الاضرابات من حيث سرعة تلاحقها وتاثيرها المتزايد .

٢ – مسالة التفرق العنصري بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين ، هذه المسالة لم تكن ظاهرة الحدة قبل ١٩٦٧ .. كما انها حين ظهرت في السنوات الاولى بعد عدوان حزيران ، كان زعماء اليهود الشرقيين يطرحون مشكلتهم بشكل خاطيء كليا .. كان الخلاف يبدو وكانه تزاحم بين الجماعتين حول اي منهم هي الفئة الاكثر صهيونية وشوفينية وعداء للعرب ليكون لها « الحق » في قطف ثمار هذه السياسة .

لكن بتطور الصراع نفسه ، وبتاثير الشعارات التقدمية والديمقراطية التي رفعتها حركة المقاومة الفلسطينية ، اخذ يظهر في صفوف اليهود الشرقيين الكثير من الاصوات المعبرة عن فهم صحيح لطبيعة المشكلة . حتى ان احد زعماء حركة « الفهود » الشرقه المتطرفة قال في ندوة علنية « اننا نتطلع الى اليوم الذي سيوحد فيه نضالنا مع نضال اخوتنا العرب لتدمير الطبيعة العنصرية لهذه الدوله » .

٣ – الامتناع عن الخدمه العسكرية : ظاهرة تبرز اكثر فاكثر في المجتمع الاسرائيلي ، كما انها تاخذ شيئا فشيئا مضمونا سياسيا . كما يظهر في صفوف الطلاب بارز تاثيره معاد للعسكرية الاسرائيليه وسياسة الحرب .

٤ – يظهر في اوساط المثقفين الاسرائيليين اصوات تتعالى اكثر فاكثر في ممارستها لعملية فضح الطبيعة الاستعمارية لدولة اسرائيل وارتباطها ببرامج الامبريالية الامريكية .

٥ – يتطور اكثر فاكثر موقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) باتجاه التطابق مع مواقف الاحزاب الشيوعية العربية ، كما يتطور التفاعل بين ذلك الحزب وبين حركة المقاومة الفلسطينية.

٦ – يصل الامر بعدد من المفكرين اليهود الى الانخراط في الكفاح الفلسطيني المسلح ، وخير مثال على ذلك موضوع الجبهه الحمراء ، والعناصر اليهودية فيها التي اعتقلتها السلطات الاسرائيلية وحاكمتها وحكمت عليها بالسجن ١٥ عاما .. وقد وقف احد تلك العناصر في المحكمة – وهو ابن احد اعضاء الكنيست من حزب ماكاي – ليقول : « لنا الشرف ان نكون من طليعة الظاهرة التاريخية التي تمثل لقاء الفلسطينيين العرب واليهود لتدمير الطبيعة العنصرية والاستعمارية لهذه الدوله » .

ثانيا في الوضع الفلسطيني : شكلت

حركة المقاومة كيانا سياسيا وطنيا للشعب الفلسطيني ، اخذ الاعتراف به يتسع عربيا ودوليا ..

لكن حركة التحرر الوطني الفلسطيني لم تكن في البداية على ما هي عليه الان ، ان كان من حيث التنظيم او الايديولوجية او البرامج السياسية .. فهي ما تزال غير النضال لتنقل بنياتها التنظيمية ورؤاها الفكرية والسياسية الى مستوى متقدم باستمرار ، وتزداد فيها ثقل وتاثير الفكر التقدمي والبرامج النضالية الثورية ..

فقد حلت حركة المقاومة الكثير من المشكلات التي واجهها ، كما استهلكت الكثير من المفاهيم المغلوطة التي كانت لها مواقع قوية في بداية المعركة . ويمكن تلخيص المتغيرات الايجابية التي حدثت عبر الصراع بما يلي :

١ – لقد حدثت تحولات فكرية وتنظيمية تقدمية في اكثر فصائل حركة المقاومة ، وسقطت الكثير من المقولات الاقليمية والشوفينية .

٢ – ساد ، بعد تجارب مريرة ، مفهوم شبه موحد لطبيعة الصراع ، ولموقع المقاومة الطبيعي داخل حركة التحرر الوطني العربية وداخل العملية الثورية العالمية ، واخذت علاقات المقاومة بحركة التحرر العربي وبقوى الثورة العالمية تتنقل الى مستوى متقدم .

٣ – تم الوصول الى برامج سياسية مشتركة اكثر تقدما من اشكال اللقاء التي كانت متوفرة في الماضي . كما ان الصيغ التي تترجم علاقات التحالف اخذة في التحسن باستمرار .

٤ – البنت حركة المقاومة – في وجه اعتى اساليب القمع واكثرها تنوعا وتعددا ، وفي وجه اضخم معسكر معاد – البنت استمراريتها كحركة جماهيرية تاريخية ، وليس كانتفاضة عفوية .. ورغم كل ما تواجهه من ظروف فان نضالها داخل الارض المحتلة وخارجها ، يتصاعد باستمرار اذا ما نظر اليه كمحصلة بدخل في تفاصيلها احيانا بعض الكبوات او المراوحة .

٥ – طرحت هذه الحركة مفهوما تقدميا للقضيتين ، اخذت دائرة فهمه تتسع في الاوساط التقدمية العالمية ، حتى انها اخذت تؤثر في اطارات وقطاعات معينة من اليهود انفسهم داخل الارض المحتلة وخارجها . كما ان المفهوم التقدمي لحركة المقاومة ازاح الكثير من المقولات الشوفينية التي سادت في فترة ما لدى بعض الانظمة والقوى العربية .

٦ – تراجب حركة المقاومة باهتمام كل الظواهر التقدمية في المجتمع الاسرائيلي وتتفاعل معها بهذا القدر او ذاك .

ثالثا : على الصعيد العربي : ان تاثيرات

الصراع والنضال التقدمي والجماهيري لحركة المقاومة الفلسطينية على الاوضاع العربية ، ما زال اقل مما يجب .. لكنها تشكل نوعا تقدميا بارز الملامح :

١ – بلاحظ ان الحركات الشعبية العربية في تعارضها مع الانظمة الرجعية القديمة والحديثة ، تتجه بشكل عام للقاء مع حركة المقاومة الفلسطينية

٢ – اخذت قضية فلسطين تحتل حجمها المركزي في برامج كل القوى التقدمية العربية ، على اساس انها ساحة الصراع الاساسية بين حركة التحرر الوطني العربية وبين الامبريالية والصهيونية والرجعية .

٣ – شكلت حالة المقاومة الفلسطينية ، جاذب تثقيف سياسي تقدمي للجماهير الفلسطينية والعربية ، في محدود التاثير .

٤ – كان من نتائج هذه العلاقة التفاعلية المتصريه بين القضية الفلسطينية والقضايا الوطنية الاخرى للجماهير العربية ، ان تشكلت الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية ، والتي تزداد فيها يوما بعد يوم ثقل القوى التقدمية الجماهيرية ، على حساب الوجود الشكلي لبعض الاطراف الرسمية الممثلة للانظمة الوسطية .

٥ – لعبت حركة المقاومة الفلسطينية دورا رائدا في التحام مع القوى الشعبيه العربيه (ثورة الخليج ، معركة اليمن الديمقراطية ضد الرجعية في اليمن الشمالية والسعودية ، معركة القوى التقدمية والديمقراطية في السودان ، معارك العمال والطلبة في مصر ، والمغرب .. بالاضافة للمعارك الديمقراطية في كل من الاردن ولبنان) .

رابعا : على الصعيد العالمي : لا شك ان

ما قدمه حركة المقاومه للنضال الفلسطيني والعربي ، على الصعيد العالمي ، هو امر لم تكن لتقدمه اية عملية اخرى مهما كانت امكانياتها :

١ – فقد تمكنت المقاومة من طرح القضيه الفلسطينيه على كل قطاعات الراي العام العالمي، بل جعلت منها قضية مركزية في الاعلام العالمي كله . كما احدثت استقطابات بارزة في الاوساط التقدميه من الراي العام العالمي .

٢ – تمكنت المقاومة بنجاح منقطع من احلال مفهومها التقدمي للصراع العربي الاسرائيلي ، على صعيد العالم ، محل المفهوم الرجعي المغلوب الذي كانت الصهيونية ناجحة نجاحا تاما في تعميمه على كل صعيد .

٣ – فتحت المقاومة ابوابا واسعة للقاء مع قوى الثوره العالمية (البلدان الاشتراكية ، الحركات العمالية والديمقراطية في البلدان الراسمالية ، وحركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية) .

خامسا : كانت المقاومة من ابرز العقبات

الرئيسة في وجه مخططات الامبريالية والصهيونية والرجعية ، لتصفية قضية فلسطين والوصول الى حل يعيد ترتيب اوضاع المنطقة كلها لما فيه خدمة مصالح ذلك المعسكر المعادي .

●●●

ان الوقوف امام كل هذه الظواهر

القدمية التاريخية ، التي حدثت في داخل قوى الصراع ، على الصعيد الاسرائيلي والفلسطيني والعربي والدولي ، يكشف انها كانت بشكل رئيسي نتيجة نضال حركة المقاومة الفلسطينية رغم ان ذلك النضال ما يزال في مراحله الاولى ، وهو يعاني من الكثير من التراسبات والعقبات الذاتية التي ما تزال في حاجة الى حل .

طبعا يجب عدم تناسي ان الحياه نفسها بما تحدثه من تطور قد اسهمت في فتح امكانيات هذه التغيرات امام نضال المقاومة . لكن التغيرات نفسها ما كانت لتحدث بدون ذلك النضال .

من هنا يمكننا الجزم بان المسافه النضاليه التي قطعتها المقاومة على طريق التحرير تقاس هنا بهذه التغيرات القدمية التاريخية ، وليس بالتوازي مع زيادة الحيثة الجماهيرية الثورية الفلسطينية والعربية .

٢ – رد الهجمات الصهيونية واحباط المشاريع الاستيعابية .

٣ – تصعيد النضال داخل الارض المحتله خاصة ولذلك خارجها .

٤ – زيادة التفاعل والتداخل والمشاركة بين حركة المقاومة وحركة التحرر الوطني العربية في المعركة الفلسطينية كما في جميع المعارك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية او اية قوة من هذه القوى المعادية .

٥ – السعي مع الحركة الوطنية الاردنية لاسقاط النظام الاردني الرجعي العميل ، واقامة نظام وطني ديمقراطي يمكن الاردن من الصيرورة قاعدة ثورية للنضال الفلسطيني .

٦ – تطوير وتوطيد علاقات التحالف والتضامن الاممي مع حركات التحرر الوطني والبلدان الاشتراكية ، والطبقة العاملة والقوى الديمقراطية في البلدان الراسمالية .

٧ – النقاط الثغرات القدمية داخل المجمع الاسرائيلي والتفاعل معها وتنشيطها ودفعها للتاثير اكثر فاكثر ، والانسحام اكثر فاكثر في سياق العملية الثورية الفلسطينية .

بهذا المنطق ننظر الى الواقع الراهن لحركة المقاومة ولافاقها وللبرامج المرحلية الموصله مع هذا الواقع وتلك الافاق .. وقياسا على هذا المنطق يحدد مواقفنا من كل المشاريع المطروحة في الساحة . ومن كل الدعوات ، مهما كان منطلقها او شكلها ، ملزمين فقط بما يكفل الهوض للعملية الثورية ، طريقا الوحيد نحو التحرير بمضمونه الوطني والتقدمي والثوري والانساني ■

هـامش

(١) لقد اثبت التجارب المرة في اية محاربة لحركة تحرر الصراع ، لم تقل لؤدي الا الى الاضرار بالعمل الثوري ، على عكس ما كان يتصور الذين ذهبت لهم في فترة ما ، امكانية تلك التحركة :

– في بداية نهوض المقاومة الفلسطينية كان هناك الحياء لبعض الحد الفلسطيني – الاسرائيلي من الصراع ، على الحدود الاخرى .. وقد اثر ذلك اضرارا كبيرا بالنضال العربي والفلسطيني معا ..

– لعبا حاول البعض تحييد الرجعية الاردنية ، انسياقا مع التحركة المذكورة اعلاه ، فقامت محاور اقول وتمور ومؤامرات النظام الهاشمي الملاحقة ضد حركة المقاومة تلك المحاور والمؤامرات التي لم تكن لتقل اذي عيني ان اسبابها الحقيقية تكمن في طبيعة ذلك النظام ودوره ضمن معسكر الاعداء .

وقد توج ذلك هذه الحقيقة بالدور الذي يمارسه ذلك النظام حاليا ضد حركة التحرر الوطني العربية في الخليج .

– حاول بعض الاطراف العربية تحييد الامبريالية الامريكية ، وقيام اكثر من مطر بالتروج لمقولات ان موقف امريكا من الصراع هو نتيجة التاثير الصهيوني داخل الولايات المتحدة (اصوات اليهود في الانتخابات الامريكية ، وسيطرة الصهيونية على الوسط الاعلامي الامريكي) .. لكن الوقائع صفعت تلك المحاولات واصحابها .. حتى ان جوزف سيسكو نصه رد على هذه الاطروحات بتصريح شهير قال فيه « ان مصالحنا في الشرق الاوسط هي في اسرائيل » .. ان اية مصالح كان يتحدث سيسكو ؟ بالتاكيد عن مصالح الامبريالية الامريكية في كل الوطن العربي .. وبشير بصراحة الى دور اسرائيل في خدمة تلك المصالح وحمايتها .

بالضرورة ، بما انجزت تحريره جغرافيا .

وبهذا المنظور الثوري للعملية الثورية الفلسطينية يمكننا العودة الى تاكيد ان التحرير لن يكون عملية جغرافية ميكانيكية جامدة ، بل سيكون : ازالة الكيان العنصري الصهيوني الاسرائيلي ، بكل صفاته العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية .. واستبداله بالمجتمع الديمقراطي التقدمي الفلسطيني الكفيل بحل كل التناقضات والصراعات القومية والعنصرية والدينية .

وهذه العملية وفق المنظور الثوري الذي حددناه سابقا ، لن تتم بدون تصاعد الثغرات التقدمية التاريخية التي يحدثها النضال ، حتى الوصول الى تنامي الظواهر التقدمية داخل الارض المحتلة وصيرورتها قوة بارزة مشاركة في عملية التحرير ، وتنامي الظواهر التقدمية العربية ودخول الجماهير العربية ايضا في عملية التحرير (على الاقل في البلدان المحيطة بفلسطين) .. اذن !

فتنامي النضال واحتدام الصراع هو الطريق الوحيد لتهيئة تلك الظواهر ، وبالتالي فان اي حل جغرافي « مرحلي » ، ليس فقط لن يغير لا طبيعة اسرائيل ولا طبيعة الاوضاع العربية ، بل وايضا سيؤدي الى تجميد الصراع واجهاض العملية الثورية ، وقطع الطريق امام خلق امكانيات الحل الستراتيجي التقدمي الذي يمكن على اساسه وحده ان يقوم سلام عادل ودائم ووطيد في المنطقة .

ومن هنا فان البرامج المرحلية في نظرنا – على عكس ما هي في نظر المتراقصين وراء الحلول التصفوية – ليست قضية طرد الاحتلال من بعض الرقع الجغرافية ، على حساب العملية الثورية ، بل هي البرامج الكفيلة بتطوير العملية الثورية نفسها اولا وثانيا وثالثا وعاشرا ..

انها البرامج التي تتضمن في المرحلة الراهنة :

١ – تصعيد اللاحم فيما بين فصائل المقاومة ، وزيادة فعل ودور القوى والافكار التقدمية داخل حركة التحرر الوطني الفلسطينية ،